

إيكجان الأثرية: قراءة في النشأة الفاطمية من خلال البقايا المادية
Iqjan Archaeological Site: A Study of the Fatimid genesis through Material
Remains

نوال لعرابة^{1*}، عائشة حنفي²

¹ جامعة الجزائر 2 nawellaaraba1@gmail.com

² جامعة الجزائر 2 aicha.hanafi@univ-alger2.dz

تاريخ النشر 2025/12/31

تاريخ القبول 2025/12/01

تاريخ الإستلام 2025/08/11

الملخص:

يركز هذا المقال على نشأة وتطور التنظيم العمراني الفاطمي في منطقة كتامة، مركز الدعوة الإسماعيلية التي قادها أبو عبد الله الشيعي، مستفيداً من تجربة منصور اليم. بدأ هذا التحول من الدعوة السرية إلى التمكين العسكري، من خلال إنشاء مراكز ذات طابع سياسي وديني ومعماري. ومن أبرز هذه المراكز قلعة إيكجان التي اختيرت بعناية بسبب موقعها الطبيعي المحصن، وبعدها عن المسالك التجارية، ووفرة المياه، والجبال المحيطة بها، مما جعلها قاعدة مثالية للدعوة الإسماعيلية.

أبرز المقال طبيعة التخطيط الحضري الذي ميز المدن الفاطمية، حيث تم تقسيمها إلى ثلاثة أقسام: مركز إداري وديني (الجامع، دار الإمارة، السوق)، أحياء سكنية، وأسوار دفاعية وأبراج، كما وجدت في إيكجان بقايا معمارية تشمل الأسوار، الأبراج، المقابر، والفخاريات، مما يدل على كثافة النشاط العسكري والاجتماعي فيها. وتم اكتشاف قنوات مائية فخارية وأنفاق ومخابئ تحت الأرض، فضلاً عن مؤشرات على وجود ورش لتصنيع الأسلحة، ما يؤكد الطابع العسكري للقلعة.

اعتمد الفاطميون مبادئ دفع المضار وجلب المنافع في تخطيط المدن، بما يعكس رؤية حضارية متقدمة. وكانت قلعة إيكجان تمثل نموذجاً للتحصينات الإسلامية، حيث ساهمت في بسط السيطرة على منطقة المغرب الأوسط. يُظهر هذا الإرث العمراني التناغم بين الأهداف السياسية والدينية والعسكرية، كما يعكس دور التنظيم الإسماعيلي في تحويل النمط القبلي إلى نظام حضري متكامل.

إن دراسة القلعة تكشف عن البنية التحتية والفكر التخطيطي الذي أسس لقيام الدولة الفاطمية، وتقدم نموذجاً واضحاً للمدينة الإسلامية.

الكلمات المفتاحية: إيكجان، الدولة الفاطمية، العمارة العسكرية، المغرب الأوسط، المدن الإسلامية.

Abstract

This article focuses on the emergence and development of Fatimid urban planning in the Kutama region, the center of the Ismaili mission (da'wa) led by Abū 'Abd Allāh al-Shī'ī, who drew on the experience of Maṣṣūr al-Yaman. This transformation from secret proselytism to military empowerment began with the establishment of centers with political, religious, and architectural significance. Among the most prominent of these was the fortress of Iqjan, which was carefully chosen for its naturally fortified location, its distance from trade routes, its abundant water sources, and the surrounding mountains—all of which made it an ideal base for the Ismaili movement.

The article highlights the nature of the urban planning that characterized Fatimid cities, typically divided into three main sectors: an administrative and religious center (including the mosque, the governor's residence, and the market), residential quarters, and defensive walls and towers. At Iqjan, archaeological remains such as fortifications, towers, cemeteries, and pottery have been uncovered, indicating intense military and social activities. Additional discoveries include terracotta water pipes, underground tunnels and hideouts, as well as evidence of weapon manufacturing workshops, further emphasizing the fortress's military role.

The Fatimids applied principles of "repelling harm and bringing benefit" in their city planning, reflecting an advanced civilizational vision. Iqjan represented a model of Islamic fortifications and played a crucial role in establishing control over the central Maghreb. This architectural heritage demonstrates the harmony between political, religious, and military objectives, as well as the Ismaili organization's role in transforming tribal structures into an integrated urban system.

The study of the fortress reveals the infrastructure and strategic thinking that laid the foundation for the Fatimid state, offering a clear example of the Islamic city model.

Keywords: Iqjan, Fatimid State, military architecture, central Maghreb, Islamic cities.

1. مقدمة:

جمع التنظيم الإسماعيلي بين قوة ومنعة قبائل كتامة¹، ومن أرض هذه القبائل بدأت أولى المبادرات المعمارية المرتبطة بالتكوينات الجديدة، التي حملت طابعاً سياسياً واجتماعياً ومذهبياً. فقد أوضح الداعي أبو عبد الله الشيعي لأتباعه أن قبيلة كتامة وأرضها تمثلان الملاذ والدعامة الأساسية للإمام المهدي ولدعوته.

وقد تطلب الانتقال من المرحلة الدعوية السرية إلى المرحلة العسكرية العلنية وقتاً وجهداً، رافقته مجموعة من الإنشاءات العمرانية المرتبطة بطبيعة هذا التحول. ويمكن التمييز بين نوعين من المنشآت العمرانية التي أنشأها أبو عبد الله الشيعي في بلاد كتامة:

النوع الأول يرتبط بالمرحلة الدعوية، والنوع الثاني بالمرحلة العسكرية.

¹ قبيلة كتامة: هي قبيلة بربرية كبرى استوطنت مناطق واسعة من الجزائر الحالية، خاصة في جبال وسط وشرق البلاد مثل منطقة بجاية، جبجل، ميلة، والقل وسطيف، ظهرت كتامة في المصادر العربية منذ القرن الثالث الهجري بوصفها قبيلة قوية ذات نفوذ، وعُرفت بشجاعته وصلابته في القتال، وبرز دورها التاريخي الأكبر عندما أصبحت العمود الفقري للدعوة الفاطمية؛ فمع وصول الدعاة الإسماعيليين إلى بلاد المغرب، تحالفت كتامة معهم، وأسهمت مساهمة مباشرة في إسقاط دولة الأغالبة بتونس وتأسيس الدولة الفاطمية سنة 297هـ/910م. وقد شكل المحاربون الكتاميون القوة العسكرية الأساسية التي اعتمد عليها الفاطميون في توسعهم بالمغرب ثم انتقالهم إلى مصر... أنظر: ابن خلدون عبد الرحمن. كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر. تحقيق: خليل شحادة، بيروت: دار الفكر، 1981، ج 6، ص 156-160.

وتطلق المصادر الشيعية الإسماعيلية على القرى والمدن التي كانت مهبطاً لاحتضان الدعوة ومهدت لظهورها العلني، تسمية "دار الهجرة"، وهي الأماكن التي كانت تُتخذ مقرّاً للدعاة الإسماعيليين والإمام من آل البيت خلال فترة السرية، وقد استفاد الداعي أبو عبد الله الشيعي من التجربة الدعوية في اليمن، التي وضع أسسها منصور اليمن، والتي ترافقت مع إنشاءات عمرانية هدفت إلى ترسيخ وجود الدعوة وتحويلها إلى قوة سياسية وعسكرية فعلية. فقد تلقى أبو عبد الله تدريبه الدعوي في اليمن، ونزل بقرية عدن لاعة²، متبّعاً الخطوات نفسها عند قدومه إلى بلاد كتامة، بما في ذلك العمل الدعوي المرتبط بالتخطيط العمراني الهادف.

فعندما شعر ابن حوشب³ بحاجته إلى إظهار الدعوة وإعلان الحرب على أعدائه ومخالفه، استأذن الإمام في بناء الحصن، فأذن له وابتنى حصناً بجبل عدن لاعة. ويذكر المؤرخ الحمادي⁴ أن ابن حوشب عمد إلى بناء الحصن عندما كثرت الأموال في يده، فحصّنه وجّهزه بكل ما يحتاج إليه. وقد ساعده على تحقيق ذلك نحو خمسمائة رجل، أخذ عليهم العهود والمواثيق⁵ بالولاء والطاعة، فكان الحصن نقطة ارتكاز استراتيجية للدعوة في تلك المرحلة المفصلية.

² قرية عدن لاعة هي موضع تاريخي في اليمن، تقع في ناحية لاعة من أعمال جبل صبر قرب صنعاء. ورد ذكرها في المصادر الجغرافية القديمة باعتبارها بلدة معروفة في الماضي، لكنها أصبحت أطلاً فيما بعد. اكتسبت عدن لاعة أهميتها الكبرى خلال القرن الثالث الهجري، إذ اتخذها الداعي الإسماعيلي الحسين بن حوشب مركزاً لنشاطه، فبنى فيها حصناً، وانطلقت منها الدعوة الإسماعيلية التي لعبت دوراً محورياً في تاريخ اليمن السياسي والديني. كما كانت المنطقة تضم سوقاً مشهوراً وتحيط بها قرى وتضاريس جبلية، مما جعلها مركزاً محلياً ذا وزن خلال فترات تاريخية مختلفة... أنظر: الهمداني الحسن بن أحمد، صفة جزيرة العرب، تحقيق: محمد بن علي الأكوخ، صنعاء: دار الحكمة اليمانية، 1989، ص 124.

³ الحسين بن حوشب (ت 302هـ/914م)، ويُعرف في المصادر الإسماعيلية بلقب "المنصور"، هو من أوائل الدعاة الإسماعيليين الذين أرسلوا لنشر الدعوة في اليمن خلال القرن الثالث الهجري. وصل إلى اليمن قادماً من العراق، وتمكن خلال سنوات قليلة من إنشاء قاعدة قوية له في منطقة عدن لاعة، التي اتخذها مركزاً لنشاطه الدعوي والسياسي.

اشتهر ابن حوشب بدهائه السياسي والتنظيمي، واستطاع بناء شبكة واسعة من الأنصار في الجبال والقرى اليمنية. كما أسهم، بالتعاون مع الداعي الآخر علي بن الفضل الجذامي، في تأسيس نفوذ إسماعيلي واسع في اليمن، شكل بدوره قاعدة مهمة للدولة الفاطمية الناشئة في شمال أفريقيا... أنظر: المقرئ، تقي الدين. اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق: جمال الدين الشبال، القاهرة: دار الكتب، 1967، ج 1، ص 39-50.

⁴ المؤرخ الحمادي: هو علي بن محمد الحمادي، أحد مؤرخي العصر الوسيط في المغرب الإسلامي، ويُنسب غالباً إلى دولة بني حماد التي حكمت وسط الجزائر (القرن 11-12م). لا تتوافر عنه سيرة شخصية مفصلة كما هو الحال مع كبار المؤرخين، لكن اسمه يرد في سياق المصادر المحلية التي تناولت تاريخ الحماديين، ويُنسب إليه تدوين أخبار تخص نشأة الدولة الحمادية، وسير ملوكها، وتنظيماتها الإدارية والعسكرية، وعلاقتها بالفاطميين والزيريين، يُعد الحمادي من المؤرخين الإخباريين الذين جمعوا الروايات الشفوية والمكتوبة، واعتمدوا على أرشيف الدولة الحمادية، وقد استفاد منه لاحقاً مؤرخو شمال إفريقيا مثل البكري والادريسي وابن خلدون عند حديثهم عن الحماديين... أنظر: نشيدة رافعي، "شخصية ابن حماد الصنهاجي (628هـ) صاحب مخطوط أخبار ملوك بني عبيد"، مجلة الحضارة الإسلامية، المجلد 14، العدد 18، 2013، ص 393-408.

⁵ أبو عبد الله محمد بن مالك بن أبي القبائل الحمادي المعافري: كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة، حققه وعلق حواشيه محمد بن علي بن الحسين الأكوخ الحوالي، مركز البحوث والدراسات اليمني، صنعاء، 1994م، ص 89.

يتبين أن أبا القاسم الحسن بن فرج بن حوشب بن زاذان الكوفي، المعروف بمنصور اليمن، قد أنشأ مجموعة من المنشآت العمرانية، مثل الحصن، والقصر، ودار الإمارة، واتخذ منها قاعدة دعوية وعسكرية يمارس منها نشاطاته. وقد أصبحت هذه القاعدة نموذجاً يُحتذى به من قبل الدعاة، حيث سيعتمدها أبو عبد الله الشيعي عند قدومه إلى بلاد كتامة، لتكون مقراً لدعوته، أو ما يُعرف بـ"دار الهجرة".⁶

ومع وصول أبي عبد الله الشيعي إلى بلاد كتامة، بدأت معالمها العمرانية تتغير تدريجياً؛ إذ عمل على توحيد كيانه، وجمع شتاتها، وجعل منها مركزاً حضارياً متكاملاً يواكب التحولات الاجتماعية والسياسية التي طرأت على المجتمع الكتامي، الذي بات يتفاعل تدريجياً مع هذا التشكيل الحضاري الجديد. وقد استقر الداعي في بلاد كتامة سنة 280هـ / 893م،⁷ ليصبح بذلك رأس السلطة الجديدة، إلى جانب صفته الأساسية كداعٍ للإمام المهدي في بلاد المغرب، نحو أمر بدا وشيك التحقق والظهور.⁸

وهكذا أصبحت بلاد كتامة مركزاً سياسياً وإدارياً، ما منحها طابعاً مدنياً واضحاً. وقد انعكس هذا التحول بشكل مباشر على بنيتها المادية والعمرانية، التي بدأت تتكيف تدريجياً مع المتغيرات المدنية الناتجة عن تبنيها للمذهب الإسماعيلي. لقد أنشأ الفاطميون مدنها في إطار محاولتهم السيطرة على بلاد المغرب، فجاء تأسيس مدن إيكجان وتازروت⁹ والمحمدية¹⁰ وفق معايير حددت ضمن إستراتيجيات التوسع وفرض النظام، وقد ارتبط بناء هذه المدن بالنظام السياسي الفاطمي الناشئ، إذ شكّلت المنشآت العمرانية أداة لإبراز قوة الدولة الجديدة وتنظيمها، وعكست في الوقت ذاته الطابع المركزي والإيديولوجي للسلطة الفاطمية في المنطقة.

⁶ بوية مجاني: الدعوة الإسماعيلية والعمران، ضمن كتاب: من قضايا التاريخ الفاطمي في دوره المغربي، دار بهاء الديم للنشر والتوزيع، قسنطينة، 2007، ص 150.

⁷ القاضي النعمان: افتتاح الدعوة، ج2، تحقيق فرحات النعمان الدشراوي، الشركة التونسية للتوزيع، ديوان المطبوعات الجامعية، تونس، 1986، ص 71، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج6، عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، 1997، ص 451.

⁸ القاضي النعمان: المصدر نفسه، ص 80.

⁹ تازروت: تتواجد في موقع جغرافي متميز وسط سلسلة جبلية، محصورة بين أعالي وادي الرمال ووادي الرصاص، وتبعد حوالي عشرة أميال عن مدينة قسنطينة، تحتل المنطقة بؤرة استراتيجية تطل من خلالها على كامل ضواحيها، وقد كان أبو عبد الله الشيعي، قد التحق بتازروت بعد انتشاره لأتباعه وحصوله على رضاهم، فقد أعدوا للداعي وأنصاره إقبالا حارا من طرف قبيلة غشمان، وقد كفل موقع تازروت غير المنعزل للداعي ميزة القرب من حواضر كتامة مثل ميله، التي لا تبعد عنها سوى 40 كم من الجهة الجنوبية الغربية، وأصبح بذلك قريب من مضارب قبائل مسالمة، ولهيصة وملوسة ولطاية...أنظر: القاضي النعمان، المصدر السابق، ص 99.

¹⁰ المحمدية: أسست في العهد الفاطمي عام 315هـ / 927 م على يد الخليفة الفاطمي القائم بأمر الله، وأطلقت عليها آنذاك اسم المحمدية نسبةً إليه، بُنيت تحت إشراف علي بن حمدون الأندلسي الذي كان أول والٍ لها، لتكون قاعدة عسكرية استراتيجية وجسراً حضارياً مهماً في "إقليم الزاب" لدى الدولة الفاطمية، أما خلال العصور الوسطى، شهدت المدينة تطوراً اقتصادياً وعلمياً وثقافياً: أصبحت مركزاً حضارياً مهماً، واستقطبت كبار العلماء والأدباء والتجار من أنحاء المغرب الإسلامي...أنظر: صليحة رحلي، مدينة المسيلة دراسة تاريخية وأثرولوجية، حوليات التاريخ والجغرافيا، المجلد 9، العدد 1، 2020، ص ص 55-67.

ولا شك أن عملية التأسيس واختيار المواقع كانت ثمرة تفكير عميق ومدرّوس من طرف مؤسسي الدولة الفاطمية، إذ اقتضى السياق العسكري المحيط بهم التروّي في كل خطوة تُتخذ، تحقيقاً لهدفهم في إخضاع القبائل الكبرى المستقرة في المنطقة وضواحيها، إضافة إلى بسط النفوذ على مختلف جهات المغرب الأوسط.¹¹

وقد تحوّل هذا الإرث الحضاري تدريجياً إلى تقليد راسخ في بناء المدن، تردّد صداه في معظم الحواضر الإسلامية. وسواء أُنشئت المدن لأسباب عسكرية أو حضارية، أو جمعت بين الاثنين معاً كما هو الحال في مدينة المحمدية، فإن ملامح ذلك تتجلى بوضوح في اختيار مواقعها وتخطيطها. فقد تأثّر هذا التخطيط بالمسار الحضاري العام، وراعى الجمع بين شرطين أساسيين في تأسيس المدن، وهما: "دفع المضار وجلب المنافع".¹²

ويُجمع معظم الباحثين المهتمين بالعمارة الإسلامية على أن تخطيط المدن كان يتم وفق تقسيمات كبرى، يمكن إجمالها فيما يلي:

أ- القسم الأول: قلب المدينة النابض، ويمثّل مركزها الأساسي من الناحية الدينية والاقتصادية والاجتماعية. يضم هذا القسم مجموعة من المنشآت العمرانية الحيوية، من أبرزها: المسجد الجامع النواة الدينية والعلمية التي تدور حولها الحياة الروحية والتعليمية، ودار الإمارة أو قصر الحاكم مقر السلطة السياسية والإدارية، ومن خلالها تُدار شؤون الدولة وتُتخذ القرارات وكذا السوق الرئيسي الذي يمثّل مركز النشاط الاقتصادي، حيث تتم المبادلات التجارية الداخلية والخارجية، ويعكس حيوية المدينة وديناميكيته.¹³

ب- القسم الثاني: الأحياء السكنية (الخطط):

يتمثّل هذا القسم في المناطق السكنية التي تُعرف بـ"الخطط" أو الأحياء، وهي تضم مجموعة من المرافق اليومية التي تخدم السكان، مثل الساحات، الحمامات، الدكاكين، الأزقة والدروب.¹⁴ وتتميّز بتشابكها العمراني وتنوّعها الوظيفي، ما يعكس طبيعة الحياة الاجتماعية داخل المدينة.

¹¹ عبد القادر قرمان: مدينة المسيلة، النشأة والتطور في العهد الإسلامي، ضمن الملتقى الوطني الأول حول تاريخ وأعلام المسيلة من 27-29 أفريل، دار الثقافة، المسيلة، 2009م، ص33.

¹² ابن خلدون: (ت 808هـ/1405-1406م): المقدمة وكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ضبط المتن ووضع حواشيه خليل شحادة وراجعها سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت 2000م، ص432.

¹³ ثروت عكاشة: القيم الجمالية في العمارة الإسلامية، دار الشروق للطباعة والنشر، القاهرة، 1994م، صص 60-61.

¹⁴ عبد الستار عثمان: المرجع السابق، ص85.

ج- القسم الثالث: سور المدينة:

يحيط هذا السور بكامل المدينة، ويتضمن منافذ (بوابات)، وأبراج مراقبة، وأبواب رئيسية، ويُعد من العناصر الدفاعية الأساسية. يرتبط السور مباشرة بوسط المدينة عبر الشوارع الرئيسية، ويُعد ضرورة أمنية لحماية المدينة من الاعتداءات الخارجية، كما يرمز إلى استقلالها وهيبتها السياسية والعسكرية.¹⁵

وتُظهر هذه الأقسام الثلاثة الكبرى للمدينة الإسلامية ترابطاً وظيفياً وتكاملاً عمرانياً، حيث يكمل كل قسم منها الآخر في أداء الأدوار الدينية، السياسية، الاقتصادية، والاجتماعية.¹⁶، ويبدو أن النمو السكاني للمدينة، وتزايد أعداد السكان والتجار¹⁷ كان من بين العوامل الأساسية التي ساهمت في هذا النوع من التخطيط، بما يضمن تلبية حاجات السكان وتنظيم الحياة الحضرية بشكل متوازن وفعال.

2. قلعة إيكجان التسمية والموقع:

تُعد قلعة إيكجان من المواقع التي كانت مجهولة إلى حد كبير في كتب الرحالة والجغرافيين، رغم أهميتها الكبرى كأول عاصمة للخلافة الفاطمية في بلاد المغرب، وكأول مركز مرتبط بالدعوة الإسماعيلية. ويُعزى ذلك إلى عدة عوامل، من أبرزها بعد موقع القلعة عن المسالك الرئيسية في بلاد المغرب، مما قلل من ذكرها أو التعرض لها في المصادر. كما أن قلعة إيكجان أُفرغت من سكانها عقب نجاح الداعي أبو عبد الله الشيعي في القضاء على الدولة الأغلبية وتأسيس الخلافة الفاطمية في المغرب الأوسط، مما ساهم في اختفائها تدريجياً من الذاكرة الجغرافية والتاريخية.

1.2. أصل التسمية:

تضاربت آراء الرحالة والجغرافيين بشأن أصل تسمية إيكجان (Ikdjan)، التي استقر بها الداعي أبو عبد الله الشيعي في البداية. وتتميز المنطقة بوعورتها وحصانها الطبيعية، ما جعلها موقعاً استراتيجياً للدعوة الإسماعيلية. فقد أشار ياقوت الحموي إلى أن إيكجان هي ناحية في المغرب من بلاد البربر، ثم من بلاد كتامة،¹⁸ دون تفاصيل إضافية.

¹⁵ أحمد فكري: مساجد القاهرة ومدارسها، دار المعارف، القاهرة، 1961م، ص295.

¹⁶ عبد العزيز لعرج: مدينة المنصورة المرينية بتلمسان، دراسة تاريخية أثرية في عمرانها وعماثرها وفنونها، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 2006م، ص80.

¹⁷ البكري: المصدر السابق، ص59.

¹⁸ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج1، دار صادر، بيروت، 1977م، ص273.

أما الإدريسي فقد كان أكثر دقة في وصفه حيث قال¹⁹: "ويقرب سطيف جبل يسمى إيكجان، عليه حصن حصين ومقل منيع لكثامة، وتمتد عمارتها فيه إلى أن تجاوزت أرض القل وبونة". كما حدد المسافة بين هذا الجبل وبين بجاية بمرحلة ونصف.

تعني كلمة "إيكجان" في اللغة الأمازيغية "الكلاب"، وجمعها "أقجون"، فيكون معنى الاسم "خربة الكلاب". ويبدو أن سر هذه التسمية يعود إلى اعتماد السكان القدامى على الكلاب في مهام الحراسة، حيث كانوا يضعونها في المرتفعات التي تطل على كافة النواحي، ومنها قلعة إيكجان²⁰، إذ تُعدّ كلمة "إيكجان" ترجمة مباشرة في اللغة العربية لكلمة "الكلاب".²¹ ويُعدّ اسم "إيكجان" اسمًا حديثًا للاسم القديم "تازجان" (Tazajjan)، الذي كان يُطلق على المنطقة في فترات سابقة. وكانت هذه المنطقة تُشكّل محل اجتماع للحجاج القادمين من الأندلس وشمال المغرب الأقصى، نظرًا لموقعها الاستراتيجي. وقد اختارها الداعي أبو عبد الله الشيعي لتكون "دار الهجرة" ومركزًا لانطلاق دعوته، ومكانًا لاجتماع أنصاره من قبائل البربر.²²

2.2. الموقع:

تقع منطقة إيكجان الحالية في الشرق الجزائري، على بُعد حوالي 66 كلم شمال شرق مدينة سطيف. ووفقًا للتقسيم الإداري الذي أحدث سنة 1984، فإنها تابعة لدائرة بني عزيز. تمتد المنطقة بين خطي الطول 5° و 39' شرقًا، وبين دائرتي العرض 36° و 28' شمالًا، وتغطي مساحة إجمالية تُقدّر بحوالي 231 كلم². ويزيد عدد سكانها عن 43,000 نسمة.²³

تقع المدينة على هضبة يبلغ ارتفاعها نحو 983 مترًا عن سطح البحر، ويمر بالقرب منها الطريق الوطني رقم 7، ما يمنحها موقعًا استراتيجيًا يسهل الوصول إليه، ويعزّز من أهميتها الجغرافية.²⁴

¹⁹ الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج1، تحقيق مجموعة من الباحثين والمستشرقين، تحت إشراف المعهد الجامعي للدراسات الشرقية

بنابولي، 1970-1984 (i.u.o.n)، نشر مكتبة الثقافة الدينية، مصر، بلا تاريخ، ص269.

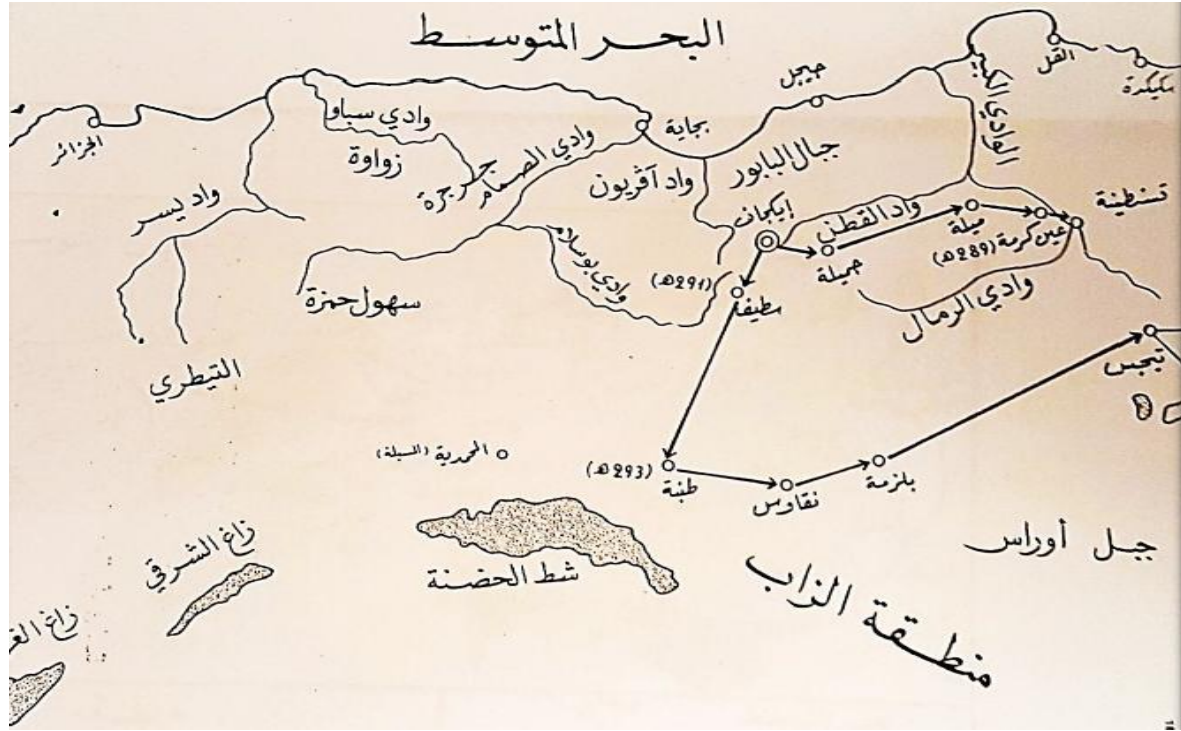
²⁰ موسى لقبال، دور كثامة في تاريخ الخلافة الفاطمية منذ تأسيسها إلى منتصف القرن الخامس الهجري (11م)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979م، ج2، ص358.

²¹ E.F, Gautier, Le passé de l'Afrique du nord, les siècles obscurs, Paris, Payot, 1942, p325.

²² محمد الطالبي، الدولة الأغلبية، التاريخ السياسي 184-296 هـ/800-909م نقله إلى العربية المنجي الصيادي وحماي الساحلي، الطبعة الثانية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1995م، ص600.

²³ عن أرشيف الدائرة الأثرية لولاية سطيف - البرج - المسيلة، التعريف بمدينة إيكجان الإسلامية، أنظر موسى لقبال، المرجع السابق، ص394.

²⁴ نفسه.



الخريطة 02: موقع قلعة إكجان

عن: جميلة بونعجة، أهم المراكز والقلاع الفاطمية ببلاد المغرب الأوسط من خلال كتاب افتتاح الدعوة للفاضي النعمان، رسالة ماجستير في الآثار الإسلامية، جامعة الجزائر 2، 2017-2018، ص 163.

3. العوامل الجغرافية في اختيار موقع قلعة إكجان:

تميّز موقع قلعة إكجان بجملة من الخصائص الجغرافية والطبيعية التي جعلت منه اختياراً استراتيجياً موقفاً للداعي أبي عبد الله الشيعي، ليقيم فيه "دار الهجرة" وينطلق منه في دعوته الفاطمية. وتتلخص هذه العوامل في ما يلي:

1.3. التحصين الطبيعي والطبوغرافيا الوعرة:

تقع قلعة إكجان وسط سلسلة جبلية حصينة، تحيط بها المرتفعات من مختلف الجهات، مما جعلها موقفاً صعب المنال، وساعد على تحصينها من الهجمات. تحدها من الشمال جبل سيدي ميمون (1509 م) وجبل سيدي الصالح مرزقان. ومن الجنوب جبل بن دريس. أما من الجنوب الشرقي جبل جردة. وقريبة من سلسلة جبال الباور²⁵، المعروفة بوعورتها وكثافة غطائها النباتي.

2.3. وفرة الموارد المائية:

ساهمت كثرة الينابيع والوديان في جعل المنطقة مؤهلة للاستقرار البشري والزراعة. تحيط بها وديان كوادي الكلاب ووادي بورديم، اللذان يصبان في الوادي الكبير المتجه نحو البحر. أما من العيون الدائمة الجريان:

²⁵ موسى لقبال: المرجع السابق، ج 2، ص 363.

فنجذ عين أقادو (من جبال البابور)، وعين الصفصاف، عين المكن (أسفل القلعة)²⁶، بالإضافة إلى: عين الرحابة (جنوباً)، وعين أنشام (شرقاً)، وعين بورماد وعين لحمر (غرباً)، عين المراء (جنوب شرق)، وعين الأوقات.²⁷

3.3. الخصوبة الزراعية:

تنتشر حول القلعة سهول عالية وخصبة، وقّرت مجالاً للزراعة وتربية المواشي، ما عزز من إمكانية الاعتماد على الذات، ومن أبرزها: ظهر التين، تاشهودة، شعبة الزكار، المشوار، وابن صالح.²⁸

4.3. المعابر الجبلية (الفجوج)

توجد في محيط القلعة عدة فجوج تربطها بمناطق مجاورة، تُعدّ عناصر حيوية للحركة والاتصال عند الحاجة، ومنها: فج أمسيد وفج الضباب وعلى بعد 70 كلم، يوجد فج مزالة الطويل المؤدي إلى ميلة، المعروف محلياً بـ"غار أجري"²⁹.

كل هذه العوامل الطبوغرافية والمائية والزراعية، بالإضافة إلى الطبيعة المعزولة والمحصنة للمنطقة، ساهمت في جعل إيكجان موقعاً مثالياً لانطلاق الدعوة الإسماعيلية، ومكاناً آمناً ومناسباً لاجتماع الداعي بأنصاره وتحضير انطلاق المشروع السياسي والعسكري للدولة الفاطمية في بلاد المغرب.

وحسب المعطيات الجغرافية، يمكن القول إن قلعة إيكجان كانت محصنة طبيعياً بشكل يتوافق مع المبادئ التي وضعها علماء التراث الإسلامي في تخطيط المدن واختيار مواقعها.

ففي كتب العمران الإسلامي، نجد اهتماماً واضحاً بضرورة مراعاة مجموعة من الشروط الطبيعية لضمان استقرار المدينة وأمنها.

فابن الرّبيع، على سبيل المثال، حدّد ستة شروط أساسية يجب أخذها بعين الاعتبار، منها:

- وفرة المياه العذبة،
- اعتدال المناخ وجودة الهواء،
- والقرب من المراعي وموارد الحطب.³⁰

²⁶ نفسه، ص 364.

²⁷ عين الأوقات لأنها تجري خمس مرات في اليوم والليلة في أوقات الصلوات الخمس وتتقطع ما بين ذلك، أنظر البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، زيتا غرافيك، الجزائر، 2011، ص 36.

¹ موسى لقبال، نفسه، 360-361.

²⁹ نفسه.

³⁰ شهاب الدين بن أبي الربيع: سلوك المالك في تدبير الممالك تحقيق عارف احمد عبد الغني، دار كنان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق

1996م، ص 101.

أما ابن خلدون، فقد أكد في مقدمته أن أفضل مواقع المدن هي تلك التي تُقام في أماكن منيعة، مثل الهضاب الوعرة أو المناطق المحاطة بالمياه، لأنها تُصعب على العدو الوصول إليها، يقول:

"أن يكون وضع ذلك في ممتنع من الأمكنة، إما على هضبة متوعدة من الجبل، وإما باستدارة بحر أو نهر بها، حتى لا يُوصل إليها إلا بعد العبور على جسر أو قنطرة، فيصعب منالها من العدو، ويتضاعف امتناعها وحصنها".³¹

كما أشار ابن الأزرقي إلى أصلين كبيرين في تخطيط المدن و دفع المضار، و وجلب المنافع وأورد ضمن "دفع المضار" ضرورة بناء المدينة في مكان مرتفع، لتفادي الأخطار البيئية والعسكرية. كل هذه المعايير، التي صاغها علماء العمران المسلمون، تنطبق بوضوح على موقع قلعة إيكجان، ما يثبت أن اختيارها لم يكن اعتباطياً، بل مؤسساً على نظرة استراتيجية بعيدة المدى، جمعت بين متطلبات الأمن الطبيعي وضرورات الاستقرار والتهيئة الحضرية³².

قد استفادت قلعة إيكجان من موقعها الطبيعي المميز، إذ توفرت فيها جملة من الشروط الجغرافية التي ساهمت بشكل مباشر في تحصينها وتعزيز مناعتها.

فبُنيت القلعة على هضبة عالية تحيط بها سلسلة من الجبال، ما جعلها في موقع وعز، يشبه في تحصينه وكر العقاب، ويُصعب على العدو الوصول إليها، كما أن كثرة الفجاج الضيقة والمسالك الصعبة التي تحيط بها جعلت المرور منها محفوفاً بالمخاطر، وسهّلت في الوقت ذاته مراقبة التحركات العسكرية من مسافات بعيدة.

ولا شك أن هذا الموقع الحصين، إضافةً إلى ما يزخر به من موارد طبيعية وخيرات زراعية ومائية، هو ما جعل الداعي يختاره مقراً دائماً³³، ونقطة انطلاق لدعوته السياسية والدينية، حيث تهيأت فيه ظروف الأمان والعزلة النسبية، إلى جانب سهولة الاتصال بالأنصار في مختلف الجهات.

وقد اختير موقع إيكجان من قبل الداعي الشيعي أبو عبد الله لعدة عوامل استراتيجية، من أبرزها ابتعادها عن الطرق التجارية الرئيسية التي كانت تسلكها القوافل، مما وفر للمنطقة نوعاً من العزلة والحماية من أعين المتربصين، وحصانتها الطبيعية، حيث تستند القلعة إلى جبال شاهقة توفر رؤية بانورامية واسعة، تسمح بمراقبة تحركات العدو من مسافات بعيدة،³⁴ الأمر الذي يسهل اتخاذ التدابير الدفاعية في الوقت المناسب.

³¹ ابن خلدون: المقدمة، اعتناء ودراسة احمد الزعبي، دار الارقم، بيروت، لبنان ص ص 383.

³² أبو عبد الله محمد بن الأزرقي الأندلسي: بدائع السلك في طبائع الملك، دراسة وتحقيق محمد بن عبد الكريم، الدار العربية للكتاب، ليبيا تونس 1977م، ج2، ص 764.

³³ موسى لقبال، المرجع السابق، ج2، ص ص 364.

³⁴ عبد الكريم عزوق وآخرون، المراكز العمرانية الكبرى في المغرب الأوسط، مركز الفنون والثقافة قصر رياس البحر، الجزائر 2007، ص 42.

4. التحصينات الدفاعية لقلعة إيكجان.

تقع قلعة إيكجان في قرية بني عزيز، فوق قمة جبل يصعب الوصول إليه بسبب وعورة مسالكه. ويمكن إلى اليوم ملاحظة بقايا الأسوار والأحجار الضخمة، وهي ما تبقى من بعض المساكن والقصر التي شكّلت دار الهجرة الأولى في إيكجان، وقد أنشئت القلعة وسط بساتين الزيتون، ومحاطة بمجموعة من الحقول، ما يجعلها غير ظاهرة من بعيد، ولا يُمكن تمييزها إلا عند الاقتراب منها.

وتتمثل المظاهر العمرانية للقلعة أساساً في بقايا سورها المنتشرة في مواقع متفرقة. ورغم صعوبة تحديد الشكل الأصلي لهذا السور بسبب تآكل بنيته واندثار أجزاء كبيرة منه، إلا أن بعض أجزائه العلوية ما تزال مرئية، في حين أن الباقي مغمور تحت التراب. ويُعزى انهيار أجزاء واسعة منه إلى الإهمال، إضافة إلى الدور السلبي لبعض السكان المحليين الذين قاموا بنقل حجارة القلعة لاستعمالها في بناء مساكنهم أو في تسييج بساتينهم.³⁵

والملاحظ أن السور يتبع شكل الهضبة التي بنيت عليها القلعة، والتي تبدو من حيث الشكل شبه دائرية. كما نشير إلى أن الموقع لم يشهد لحد الساعة أية حفريات أثرية رسمية، وربما يُفسر ذلك بعدم توجّه الباحثين والأثريين نحوه بالرغم من قيمته التاريخية.

ورغم ذلك، فقد أقر رسمياً بوجود آثار إسلامية ببلدية بني عزيز، وقد تم تصنيف هذه القلعة ضمن التراث الوطني بتاريخ 20 نوفمبر 1978، كما نُشر قرار التصنيف في الجريدة الرسمية تحت رقم 52 بتاريخ 26 ديسمبر من نفس السنة³⁶

1.1.4. بقايا السور:

شكّل الأمن والاستقرار في العصور الوسطى حاجساً كبيراً بالنسبة للدول، ما دفعها إلى اتخاذ إجراءات وقائية لتحسين مدنها. ويُعدّ اختيار الموقع الاستراتيجي لقلعة إيكجان مثالاً واضحاً على هذا التوجه، خاصة في ظل الظروف السياسية المعقدة التي عاشها المغرب الأوسط خلال تلك الفترة، وما رافقها من تهديدات داخلية وخارجية.

وقد عكست هذه التحصينات التوجهات العسكرية والفكرية التي تناولتها كتب الفكر العمراني الإسلامي، والتي شددت على أهمية التحصين بوصفه وسيلة لحماية المدينة وضمان استمرارية عمرانها³⁷، وانطلاقاً من هذه الأهمية، أصبح السور أحد المعايير الحضارية المميزة للمدينة الإسلامية، بل يُعدّ رمزاً لسيادتها واستقلالها. وفي هذا السياق، يؤكد ابن خلدون أن الحماية من المضار تقتضي "أن يُدار على منازل المدينة سياج من الأسوار"³⁸ ضماناً للأمن ودفعاً للأخطار.

³⁵ موسى لقبال، نفسه، ص ص 357. 358.

³⁶ Sites et monuments, Historique de la wilaya de Sétif, les monuments et sites médiévaux, p.7.

³⁷ محمد عبد الستار عثمان، المدينة الإسلامية، سلسلة كتاب الثقافة، الكويت، 1988، ص 135.

³⁸ ابن خلدون، المقدمة، ص 383.

كما اعتبر الإسلام بناء الأسوار والأبراج والقلاع والحصون من الوسائل المشروعة والضرورية لحفظ النفس والمال والعرض، وهي من المقاصد الأساسية للشرعية. وتشكل هذه التحصينات دليلاً واضحاً على قداسة المدينة الإسلامية وحرمتها³⁹ بوصفها مركزاً لل عمران والحياة الاجتماعية والدينية والاقتصادية.

وفي المصطلح الأثري والمعماري، يُعرّف السور بأنه جدار عالٍ وضخم يُشيد ليحيط بالبناء، بهدف تأمين الحماية له⁴⁰، ويُعدّ من أهم أنواع التحصينات الدفاعية، إذ قد يكون ترابياً أو خشبياً أو حجرياً، ويتخذ شكل حاجز يطوّق المدينة أو القلعة أو حتى يمتد على طول حدود الدولة.

وتكتسب الأسوار أهمية خاصة في المجال الحربي، حيث تُعدّ خط الدفاع الأول⁴¹ سواء بالنسبة للمدن أو المباني المعمارية الكبرى، وتبرز أهميتها بشكل خاص أثناء فترات الحروب والغزوات الخارجية. ويندرج سور قلعة إيكجان ضمن هذا التصور الدفاعي، إذ يعكس بوضوح التوجه العسكري التحصيني الذي تبناه الداعي في اختيار الموقع وبنائه.

ويُعدّ السور من بين الشروط الأساسية التي وضعها الفكر العمراني الإسلامي لتكوين المدينة المثالية، إذ يرى المنظرون أن أفضل مواقع تأسيس المدن هي تلك التي تتوفر فيها خمسة عناصر: نهر جارٍ، وأرض صالحة للزراعة، ومصدر قريب للحطب، وسور حصين.⁴²

وبالرجوع إلى موقع إيكجان، يتبين من خلال المعطيات الأولية أن هذه الشروط قد توفرت فيه، فقد كانت القلعة محاطة بسور دفاعي يتبع شكل الهضبة التي بنيت عليها، والتي تبدو شبه دائرية. كما أن الموقع يطل على منحدرات وجروف تؤدي إلى فجوج وأودية عميقة ما يجعل الوصول إليها من الطرق الجانبية صعباً للغاية.⁴³

ومع مرور الزمن، لم يتبقّ من هذا السور سوى بعض الأجزاء المتناثرة. (الصورة 01) ويبدو من خلال المعايينات الميدانية أن المواد المستخدمة ونمط البناء -وخاصة الملاط الذي يربط بين الحجارة- يعكس تطوراً نسبياً مقارنة بالفترات القديمة.⁴⁴

ومن أول ما يُصادف الزائر عند مدخل القلعة هو الجزء الظاهر من السور، المبني بالحجارة، حيث لا يزال الجزء السفلي منه مدفوناً تحت التراب، يبلغ طول هذا الجزء حوالي 2.25 متراً، وعرضه حوالي متر واحد. وبعد التقدم ببضعة

³⁹ عبد الكريم عزوق، المعالم الأثرية الإسلامية ببجاية ونواحيها، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه دولة في الآثار الإسلامية، إشراف الدكتور عبد العزيز لعرج، السنة الجمعية، 2007/2008، الجزائر، ص151.

⁴⁰ عاصم محمد رزق، ص153.

⁴¹ هيثم الأيوبي، الموسوعة العسكرية، ط2، دار الفارس، بيروت، 1990، ج4، ص458.

⁴² ابن الأزرقي: المصدر السابق، ج2، ص766.

⁴³ موسى لقبال، المرجع السابق، ج2، ص369.

⁴⁴ محمد الطيب عقاب وآخرون: تقرير خبرة حول الموقع الأثري للفترة الإسلامية، بدائرة بني عزيز، جامعة الجزائر، الجزائر 1999م.

أمتار، يظهر جزء آخر على شكل كومة من الحجارة، لا تزال بعض أجزائه متماسكة، ويقدر طوله بنحو 11 مترًا وارتفاعه بـ 1.25 متر.

أما أكبر الأجزاء الباقية، فتتمثل في بقايا السور الشرقي الذي يبدو أنه كان يحيط بالقلعة بكاملها. وهو مبني بالحجارة والطين، ويبلغ عرضه حوالي 1.5 متر، وارتفاعه نحو مترين، وطوله نحو 14.25 مترًا. وتلاحظ عند أسفل هذا السور فتحة يُعتقد أنها مغارة، يُحتمل أنها كانت مدخلًا لنفق يمتد تحت المدينة، استعمل كدهليز لتخزين المؤن أو كمستودع للأسلحة⁴⁵. (أنظر الصورة 02).

كما تتخلل هذا السور فتحات صغيرة علوية، يبلغ ارتفاعها نحو 40 سم وعرضها 30 سم، يُرجح أنها كانت فتحات للرمي أو للتهوية. ويوجد كذلك امتداد للسور الشرقي يبلغ طوله حوالي 7.5 أمتار وارتفاعه 1.40 متر. أما بقية الأجزاء، فتنتشر داخل محيط القلعة، بعضها مدمج داخل منازل حديثة بنيت بجوار الموقع الأثري.

1.1.4. طريقة بناء السور:

تعتمد الطريقة المستخدمة في بناء سور مدينة إيكجان على تقنية الحشو، المعروفة في المصطلح الأثري باسم (Incertum)، وتقوم هذه التقنية على رصف الحجارة بشكل غير منتظم، حيث تُوضع الأحجار الكبيرة بشكل تلقائي على الواجهتين، وتُملأ الفجوات بينها بمادة الملاط التي تُستخدم كمادة لاصقة. أما الفاصل المجوف الذي يوجد في وسط السور، فيحشى بالحجارة المتوسطة والصغيرة الحجم، وذلك حتى يُملأ الفراغ بالكامل، مما يمنح البناء صلابة ومتانة. وتعدّ هذه الطريقة من الأساليب التقليدية التي استُعملت في البناء الدفاعي، نظرًا لسرعتها النسبية في التنفيذ، وقدرتها على توفير دعم هيكلي جيد للجدران، خاصة في المناطق الجبلية أو ذات الطبيعة الوعرة مثل موقع إيكجان.

أ- مواد بناء السور:

- الحجارة.

تعتبر الحجارة من المواد الأساسية المستعملة في البناء، وقد شاع استعمالها لتعدد وظائفها في البناء الواحد بالإضافة إلى وفرتها وسهولة استغلالها، حيث يتم نقلها إلى مكان استعمالها كمادة خام، ويمكن استخدامها كما هي، أي بالأشكال التي وُجدت عليها في الطبيعة، دون الحاجة إلى تعديل كبير.⁴⁶

⁴⁵ عن أرشيف المركز الثقافي بدائرة بني عزيز.

⁴⁶ إسماعيل بن نعمان، مدينة دلس، دراسة معمارية وأثرية (10-13هـ/16-19م) مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ، إشراف بلحميسي مولاي، جامعة الجزائر 2006-2007م، ص 138.

وقد استُخدمت الحجارة الكلسية⁴⁷ في بناء سور إيكجان بأحجام مختلفة، منها المشذبة وغير المشذبة، وتُعد الحجارة غير المشذبة، أو ما يُعرف بـ"الدبش"⁴⁸، الأكثر استعمالاً، حيث استُخدمت الأحجار الصغيرة منها لسد التجاويف وملء الفراغات، أمّا الحجارة الكبيرة، التي يتراوح حجمها بين 30 و50 سم أو أكثر، فقد استُخدمت في بناء الأساسات، نظراً لثقلها وصعوبة نقلها، ما يجعلها أكثر فاعلية في تأمين الدعم والاستقرار للسور.⁴⁹

- الملاط:

يُعدّ الملاط مادة أساسية في البناء، إذ يؤدي دوراً لاحقاً من خلال ربط ولصق مختلف عناصر البناء ببعضها البعض. ويرتبط تماسك الجدران وقوتها بشكل وثيق بمدى صلابة وتماسك الملاط. يُستخدم في إقامة الجدران والأسوار، ويتكوّن أساساً من مزيج من الرمل والطين مع إضافة الماء، ثم يُدعك الخليط بإضافة الجير، ما يؤدي إلى تصلّبه بفعل التفاعل بين مكوناته.⁵⁰

وفي بعض الحالات، تُضاف إلى الخليط مواد أخرى كقطع القرميد المكسور، وعناصر نباتية مثل القش، أو مكونات عضوية كالزّمد، بهدف تحسين خصائص الملاط والتقليل من عيوبه.

ويُطلق على الملاط أيضاً اسم "الطلاء"، باعتباره المادة التي تُملأ بها الفواصل بين المداميك لتثبيتها، كما يُستخدم لطلاء الجدران بعد بنائها⁵¹، فيما يُعرف اليوم بـ"التلبيس". وتكمن أهمية الملاط في تقوية الجدران، بالإضافة إلى حمايتها من العوامل المناخية كالأمطار، وتهينتها لأغراض الزينة والزخرفة.⁵²

ويبدو أنّه استُخدم في بناء سور إيكجان نوعان من الملاط يختلفان من حيث اللون والوظيفة؛ إذ يُلاحظ أن الملاط المستخدم في تلحيم الحجارة والصاقها ببعضها يميل إلى اللون البني، بينما استُعمل الملاط الأبيض في كسوة الحجارة وتلبيسها، ما يدلّ على تمييز وظيفي بين نوعي الملاط تبعاً للغرض البنائي أو الجمالي.

⁴⁷ تعتبر الصخور الكلسية من أهم أنواع الصخور الرسوبية، وتتكون هذه الأخيرة على سطح القشرة الأرضية التجوية والتعرية ثم الترسب، وتتم هذه العمليات بفعل الماء والرياح وغالباً ما يحدث الترسب في البحار والمحيطات، للمزيد حول المكونات المعدنية للصخور، أنظر: عادل محمد رفعت: جيو كيمياء الصخور النارية، مكتبة الفلاح، الكويت 1979 م، ص 215 وما بعدها.

⁴⁸ الدبش: هو الحجر الغشيم الغير مهذب، أنظر: ابن منظور أبي الفضل محمد بن مكرم الأنصاري (ت 711هـ/1311-1312م): لسان العرب، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت 1968م، ص 43.

⁴⁹ إسماعيل بن نعمان: المرجع السابق، ص 139.

⁵⁰ حسن الباشا: موسوعة العمارة والآثار والفنون الإسلامية، أوراق شرقية للطباعة، لبنان، 1999م، ج 2، ص 144.

⁵¹ سامي محمد نوار، الكامل في مصطلحات العمارة الإسلامية من بطون المعاجم اللغوية، ط 1، دار الوفاء، مصر، 2002، ص 176.

⁵² نوار سامي، المرجع السابق، ص 176.

2.4. البرج:

البرج هو بناء مرتفع وبارز، قد يكون جزءاً من سور أو قائماً بذاته. ويُعتقد أن أصل كلمة "برج" يعود إلى الكلمة السريانية (BURGUS) التي تعني "الحصن". ومن المحتمل أن الكلمة استُخدمت في البداية للإشارة إلى الدعامات الساندة (Buttress)، وهي بروتات تُبنى خارج الجدران لتقويتها ودعمها.⁵³

يُعد البرج عنصراً معمارياً حربيّاً، أنشئ لأغراض دفاعية، خاصة في عمليات المراقبة والرماية. وقد عُرفت الأبراج منذ العصور القديمة كأجزاء أساسية من التحصينات والأسوار، واستمر استخدامها في العمارة الإسلامية منذ الفتح الإسلامي، حيث حرص المسلمون على إقامة هذه الأبنية لتأمين المدن والحوضر.⁵⁴

ويُعتبر البرج عنصراً دفاعياً ملحقاً بسور القلعة، وقد تمّ تحديد وجود برج في قلعة إيكجان، يتمثل في كومة مرتفعة من الحجارة تقع داخل السور بمحاذاة المقبرة، يبلغ ارتفاعها حوالي 2.52 متر وطولها 1.22 متر. وبالنظر إلى شكلها ووظيفتها، يُرجّح أنها كانت برجاً للمراقبة، بُني بالحجارة الملتصقة بملاط طيني. ويُعد موضع بنائها موقعاً استراتيجياً ملائماً لأغراض المراقبة، نظراً لوقوعه على مرتفع يشرف على منحدر، ممّا يسمح برؤية شاملة لمختلف الاتجاهات المحيطة بالقلعة.

وبناءً على المعاينة الميدانية، أمكن تحديد ما تبقى من الوحدات الدفاعية لقلعة إيكجان، والتي تشمل الأسوار والأبراج، ما يدلّ على الطابع التحصيني الذي ميّز هذا المعلم.

5. البقايا المعمارية والأثرية:

1.5. الأعمدة:

العمود هو عنصر إنشائي يُستخدم لدعم السقف أو الجدار، وقد اختلفت تسمياته باختلاف المناطق؛ فهو "عمود" في المشرق، و"سارية" في المغرب، و"شمعة" في بعض مناطق لبنان. وتتنوع أشكال الأعمدة بين الدائري، والمربع، والمستطيل.⁵⁵

وفي قلعة إيكجان، عُثر على عدد من الأعمدة في بعض الزوايا، ويُشير الباحث موسى لقبال إلى أن هذه الأعمدة كانت أكثر وضوحاً وظهوراً في فترات سابقة.⁵⁶

كما تفيد روايات سكان المنطقة بأن القلعة كانت تحتوي على أسوار داخلية عديدة، ما يرجّح أنها بقايا لجدران مساكن أو منشآت معمارية أخرى اندثرت مع مرور الزمن، وبقي منها ما يدلّ على البنية العمرانية الداخلية للقلعة.

⁵³ ابن منظور، المصدر السابق، ص 43.

⁵⁴ عاصم محمد رزق، المرجع السابق، ص 34.

⁵⁵ عبد الجواد توفيق، معجم العمارة وإنشاء المباني، القاهرة، 1985، ص 238.

⁵⁶ موسى لقبال، المرجع السابق، ص 368.

6. بقايا المقبرة:

توجد داخل القلعة من الجهة الغربية مقبرة تُعرف لدى سكان المنطقة باسم "مقبرة سيدي علي البصري". هذه المقبرة أقيمت فوق مجموعة هامة من الحجارة التي كانت جزءاً من سور القلعة. ويُقال إن رجال الدعوة الأوائل الذين رافقوا الداعي أبو عبد الله الشيعي قد دُفِنوا فيها، بعدما قضوا نحبتهم بسبب المرض أو المعارك.⁵⁷ وحسب روايات أهالي المنطقة، يُنسب اسم هذه المقبرة إلى علي البصري القادم من البصرة، غير أنه لا توجد معلومات واضحة أو تفاصيل دقيقة حول هويته أو سيرته.

ومن الملاحظ عند النظر الأول إلى المقبرة أنها تحتوي على قبور تعود في غالبيتها إلى الفترة الحديثة، بينما طمست معالم القبور القديمة بمرور الزمن. (الصورة 03).

ويرجع ذلك أساساً إلى غياب أية شواهد أو نقوش كتابية تحمل أسماء أو تواريخ من شأنها أن توضح هوية المدفونين فيها، أو حتى تؤكد ما إذا كان الاسم الحالي للمقبرة هو الاسم الأصلي لها بالفعل؟⁵⁸ إن وجود الشواهد الأثرية كان من الممكن أن يوفر لنا معلومات دقيقة عن التواريخ والأسماء والأحداث التي وقعت في هذا المكان، مما يؤكد ما ورد في مصادر المؤرخين.

ومن الجدير بالذكر أن المقبرة أقيمت على أجزاء من السور الذي طمست معالمه مع مرور الزمن، ولم يتبق منه إلا بعض الحجارة الظاهرة من تحت التراب، بينما الجزء الأكبر لا يزال مدفوناً.

كما أن بقايا السور ما تزال موجودة على حافة المقبرة، مما يوحي بأنها ربما لم تكن ضمن حدود القلعة الأصلية. وقد أدت عملية توسيع المقبرة في العصر الحديث إلى احتوائها على ما تبقى من السور، ومن هنا يمكن القول إن هذه المقبرة كانت تقع خارج سور القلعة، وهو أمر يتوافق مع المخططات العمرانية الإسلامية التي كانت تُقيم فيها المقابر عادةً خارج أسوار المدن.

إن وجود الشواهد الأثرية كان من الممكن أن يوفر لنا معلومات دقيقة عن التواريخ والأسماء والأحداث التي وقعت في هذا المكان، مما يؤكد ما ورد في مصادر المؤرخين.

7. البقايا الفخارية:

يعدّ الفخار دليلاً مهماً على مدى تطور المدينة وعلاقتها بالمناطق المجاورة لها والبعيدة عنها، بالإضافة إلى معرفة أنواعه وتقنياته وصناعاته.⁵⁹

⁵⁷ موسى لقبال، المرجع السابق، ص 365.

⁵⁸ محمد عبد الستار عثمان: المرجع السابق، ص 116.

⁵⁹ محمد الطيب عقاب: الأواني الفخارية الإسلامية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1984م، ص 99.

وقد عثر سكان المنطقة على العديد من القطع الفخارية بمختلف الأحجام والألوان والأشكال (الصورة 04)، حيث وجدت أجزاء من هذه القطع والشقوف داخل قلعة إيكجان، بالإضافة إلى مجموعة أخرى من الشقوف والأواني والكؤوس، وكذلك قلة حديدية لم يُحدد بعد مجال استخدامها.

وقد تم العثور على هذه القطع أيضاً في مقبرة "الحارك" أثناء حفر قبر من قبل الأهالي لدفن أحد المتوفين. كما تم العثور في موقع إيكجان على عدة قطع فخارية متنوعة الألوان والأشكال، وهي عبارة عن أجزاء من أواني، وبسبب قلة هذه القطع يصعب تحديد هويتها بدقة، كما تم العثور على مواسير مياه مصنوعة من الفخار⁶⁰، تم العثور على عدة أنواع من الفخاريات بقلعة إيكجان، وأبرزها ما يلي:

1.7. القل: 1.

القلعة هي إناء خاص يستخدم في تبريد الماء وشربه، وتختلف عن الإبريق في شكلها ووظيفتها. تتميز القلعة بقاعدة ضيقة تفصل بينها وبين المصفاة، التي تكون أحياناً ذات عرى⁶¹، مستديرة تثبت فوق كتف الإناء، وهي بدون أسفل الرقبة التي يعلوها نتوء مقبب. بشكل عام، تنطلق القلعة من قاعدة واسعة صماء تضيق قليلاً ثم تنفتح بشكل منحنى⁶².

في موقع إيكجان، وجدت قطعة فخارية يُعتقد أنها جزء من قلعة، لم يتبق منها سوى جزء من الرقبة وجزء صغير من البدن الذي يبدو مستدير الشكل (الصورة 05) ومن الداخل، تحت الرقبة، توجد نتوءات بارزة على ما يبدو أنها جزء من المصفاة، حيث تحتوي على ثقب بأشكال ربما هندسية. يبلغ طول عنق هذه القلعة حوالي 15 سم، بينما يصل سمك الحافة العليا إلى نحو 4 ملم، وسمك حافة البدن إلى حوالي 3 ملم. ويُلاحظ أن سمك عنق القلعة من الداخل غليظ نسبياً مقارنةً بالبدن، كما يبلغ قطر العنق حوالي 8.5 سم. إضافة إلى ذلك، توجد نتوءان بارزان في الجهة العليا للعنق، ويُعتقد أنهما كانتا على شكل صدفتين لتزيين رقبة الإناء.

بالإضافة إلى ذلك، عثر على شقوف لأوانٍ أخرى⁶³ وتجدر الإشارة إلى أن هذه التحف الفخارية وجدت في حالة حفظ سيئة، إذ أن معظمها عبارة عن شقوف (الصورة 06)، كما أنها معزولة عن مستوياتها الطباقية بسبب اتساع مساحة الحفرة واستخدام الآلات الميكانيكية⁶⁴.

⁶⁰ لهواسة: التقرير السابق.

⁶¹ العرى جمع عروة، ويعتبر من الناحية الشكلية كعمود مستقيم مقوس عند التحامه بفوهة الإناء.

⁶² محمد الطيب عقاب: المرجع السابق، ص 105.

⁶³ أنظر الصورة رقم 05.

⁶⁴ حفيفة هادي: تقرير، سطيف النواة الأولى للدولة الفاطمية بالمغرب الإسلامي، متحف سطيف.

2.7. الجرار:

الجرة إناء ذو بطن كبير ومقبضان وفم واسع، وتتميز ببروز رقبتها وقاعدتها الصماء وأسفلها المستدق، أما مقابضها فهي قصيرة تشبه علامة الاستفهام. ضمن فخاريات إيكجان وُجدت بعض الشقوف التي يُعتقد أنها تعود لجرة، وهذه القطع تمثل جزءاً من عنق الآنية ذات الفم الواسع، حيث يبلغ سمك حافته حوالي 2 سم، وقد زخرف عنقها بزخارف هندسية بسيطة. تستعمل الجرار عادةً لنقل المياه.⁶⁵

3.7. القنوات الفخارية.

عُثر في الناحية الشمالية للقلعة، بالقرب من منبع "أقارو" المائي، على مواسير مياه أو قنوات فخارية على عمق ثلاثة أمتار، ويبدو أنها كانت تزود القلعة بالماء الصالح للشرب. تصنع هذه المواسير من الطينة الحمراء، على شكل أنابيب سميكة نسبياً لتكون مقاومة للكسر. وتتميز بأن طرف كل أنبوب أوسع من الطرف الآخر، مما يسمح بإدخال الفوهة الضيقة للأنبوب الأول داخل الفوهة الواسعة للأنبوب الذي يليه، وهكذا تتصل الأنابيب لتشكل قناة مستمرة. كما عثر سكان المنطقة في نفس المكان على آبار قديمة مغمورة بالتراب، وبداخلها مادة زيتية يحتمل أن تكون مستودعاً لزيت الزيتون أو اللحم المجفف والشحم، وربما تكون هذه الآبار أحواضاً تابعة لمعصرة.⁶⁶

8. بقايا صنع الأسلحة:

في خارج القلعة، بالناحية الجنوبية بحوالي 20 مترًا، وُجدت بقايا تدل على صناعة الأسلحة، حيث يحتوي الموقع على قطع حديدية مختلفة الأحجام. وهذا ليس بالغريب، إذ كانت مدينة إيكجان قلعة عسكرية بالدرجة الأولى، انطلقت منها الفتوحات والحروب التي قادها الداعي. لذلك، كانت التحضيرات للحروب، من تجهيز للأسلحة ووضع الخطط الحربية لمواجهة الأعداء، تتم داخل مدينة إيكجان.⁶⁷

خاتمة:

تشكل إيكجان محطة مركزية في مسار تشكّل الدولة الفاطمية بالمغرب الأوسط، ليس فقط من حيث بعدها التاريخي كأول قاعدة دعوية وسياسية للمهدي بن تومرت، بل أيضاً بما تحمله من دلالات مادية كشفت عنها التنقيبات الأثرية الحديثة. لقد أظهرت البقايا المعمارية، من أسوار وأبراج، أن الموقع لم يكن مجرد تجمع سكني بسيط، بل مركزاً محصناً وفاعلاً في سياقه التاريخي، يعكس وعياً عمرانياً وتنظيماً دفاعياً متقدماً بالنسبة لتلك المرحلة.

⁶⁵ حفيظة هادي، التقرير السابق.

⁶⁶ من أرشيف الدائرة الأثرية سطيف - البرج - المسيلة، التعريف بمدينة إيكجان الإسلامية.

⁶⁷ لهواسة: التقرير السابق.

أما الشق الفخاري، فقد قدّم لنا معطيات ثمينة عن الحياة اليومية، والوظائف الاقتصادية والاجتماعية للمكان، كما يُظهر الطابع المحلي للمنتجات الفخارية مدى ارتباط إيكجان ببيئتها، وانفتاحها المحتمل على شبكات تبادل إقليمي، وهو ما يعزز فرضية كونها نواة حضرية ناشئة ذات وظيفة سياسية ودينية في آنٍ معاً.

إنّ قراءة هذه البقايا المادية ضمن سياقها التاريخي يُعيد الاعتبار لموقع إيكجان كعنصر فاعل في ولادة الدولة الفاطمية، ويؤكد أن البعد الأثري يمكن أن يشكّل مدخلاً متيناً لفهم التحوّلات الكبرى التي شهدتها المغرب الأوسط أواخر القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي. ولعلّ أهم ما يخلص إليه هذا البحث هو الحاجة الماسة إلى مواصلة الدراسات الميدانية والتحليلية متعددة التخصصات، قصد إمطة اللثام عن المزيد من العناصر الغامضة حول طبيعة التنظيم العمراني والعسكري والديني في هذه المرحلة المفصلية من تاريخ المغرب الإسلامي.

ملاحق:



صورة 02: تمثل جزء سور صغير من القلعة الفاطمية.



صورة 01: صورة تمثل جدار القلعة.



الصورة 04: شقفة فخارية عثر عليها بالموقع مع تفريغ الزخارف



صورة 03: بقايا مقبرة سيدي علي البصري.

تصوير الطالبة



الصورة 06: شقف فخارية من موقع إيكجان.



الصورة 05: جزء لقلة فخارية عثر عليها بالموقع.

المراجع البيبليوغرافية:

- المصادر:

- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج6، عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، 1997.
- ابن خلدون: بن خلدون أبو زيد عبد الرحمان بن محمد (ت808هـ/1405-1406م): المقدمة وكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ضبط المتن ووضع حواشيه خليل شحادة وراجعه سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت 2000م.
- ابن منظور أبي الفضل محمد بن مكرم الأنصاري: لسان العرب، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت 1968م.
- أبو عبد الله محمد بن الأزرقي الأندلسي: بدائع السلك في طبائع الملك، دراسة وتحقيق محمد بن عبد الكريم، الدار العربية للكتاب، ليبيا تونس 1977م، ج2.
- أبو عبد الله محمد بن مالك بن أبي القبائل الحمادي المعافري: كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة، حققه وعلق حواشيه محمد بن علي بن الحسين الأكوخ الحوالي، مركز البحوث والدراسات اليمني، صنعاء، 1994م.
- شهاب الدين بن أبي الربيع: سلوك المالك في تدبير الممالك تحقيق عارف احمد عبد الغني، دار كنان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق 1996م.
- القاضي النعمان: افتتاح الدعوة، ج2، تحقيق: فرحات النعمان الدشراوي، الشركة التونسية للتوزيع، ديوان المطبوعات الجامعية، تونس، 1986.

- المراجع:

- الأيوبي هيثم، الموسوعة العسكرية، ط2، دار الفارس، بيروت، 1990، ج4.
- الباشا حسن: موسوعة العمارة والآثار والفنون الإسلامية ج2، أوراق شرقية للطباعة، لبنان، 1999م.
- بوبة مجاني: الدعوة الإسماعيلية والعمران، ضمن كتاب من قضايا التاريخ الفاطمي في دوره المغربي.
- توفيق عبد الجواد، معجم العمارة وإنشاء المباني، القاهرة، 1985م.
- ثروت عكاشة: القيم الجمالية في العمارة الإسلامية، دار الشروق للطباعة والنشر، القاهرة، 1994م.
- رفعت عادل محمد: جيو كيمياء الصخور النارية، مكتبة الفلاح، الكويت، 1979 م.
- سامي محمد نوار، الكامل في مصطلحات العمارة الإسلامية من بطون المعاجم اللغوية، ط1، دار الوفاء، مصر، 2002.
- الطالب محمد، الدولة الأغلبية، التاريخ السياسي 184-296 هـ/800-909م نقله إلى العربية المنجي الصيادي وحمادي الساحلي، الطبعة الثانية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1995م.

- عبد الستار عثمان محمد: المدينة الإسلامية، سلسلة كتاب الثقافة، الكويت، 1988.
- عزوق عبد الكريم وآخرون، المراكز العمرانية الكبرى في المغرب الأوسط، مركز الفنون والثقافة قصر رياح البحر، الجزائر 2007م.
- عقاب محمد الطيب: الأواني الفخارية الإسلامية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1984م.
- فكري أحمد: مساجد القاهرة ومدارسها، دار المعارف، القاهرة، 1961م.
- قرمان عبد القادر: مدينة المسيلة، النشأة والتطور في العهد الإسلامي، ضمن الملتقى الوطني الأول حول تاريخ وأعلام المسيلة من 27-29 أبريل، دار الثقافة، المسيلة، 2009م.
- لعرج عبد العزيز: مدينة المنصورية المرينية بتلمسان، دراسة تاريخية أثرية في عمرانها وعمايرها وفنونها، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 2006م.
- لقبال موسى، دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية منذ تأسيسها إلى منتصف القرن الخامس الهجري (11م)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979م، ج2.
- Gautier (E-F), Le passé de l'Afrique du nord, les siècles obscurs, Paris, Payot, 1942, p325.

- المقالات:

- نشيدة رافعي، "شخصية ابن حماد الصنهاجي (628هـ) صاحب مخطوط أخبار ملوك بني عبيد"، مجلة الحضارة الإسلامية، المجلد 14، العدد 18، 2013.

- المذكرات والرسائل الجامعية:

- بن نعمان إسماعيل: مدينة دلس، دراسة معمارية وأثرية (10-13هـ/16-19م) مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ، إشراف بلحميسي مولاي، جامعة الجزائر 2006-2007م.
- بونعجة جميلة، أهم المراكز والقلاع الفاطمية ببلاد المغرب الأوسط من خلال كتاب افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، رسالة ماجستير في الآثار الإسلامية، جامعة الجزائر 2، 2017-2018.
- عبد الكريم عزوق: المعالم الأثرية الإسلامية ببجاية ونواحيها، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه دولة في الآثار الإسلامية، إشراف الدكتور عبد العزيز لعرج، 2007/2008.

- التقارير:

- عقاب محمد الطيب وآخرون: تقرير خبرة حول الموقع الأثري للفترة الإسلامية، بدائرة بني عزيز، جامعة الجزائر، الجزائر 1999م.
- هادي حفيظة: تقرير، سطيف النواة الأولى للدولة الفاطمية بالمغرب الإسلامي، متحف سطيف.